الموضوع :

تبدو غزليّات جميل بن مَعْمَر في أساليبها ومعانيها شعرا وجدانيّا قائما على تصوير معاناة الشّاعر العاشق.
حلّل هذا الرّأي معتمدا شواهد مناسبة من شعر جميل.

المقدّمة: يتّفق دارسو الشّعر العربيّ القديم على أنّ الغزل صار غرضا قائم الذات مع شعراء القرن الأوّل للهجرة، وهو نوعان: غزل بدوي وغزل حضريّ. ولعلّ ما يميّز الغزل البدوي هو أنّه شعر هجر وفراق، فالوصال حلم يراود الشّاعر وأمنية لا تتحقق له أبدا، ولذلك تبدو غزليات جميل بن معمر في أساليبها ومعانيها شعرا وجدانيّا قائما على تصوير معاناة الشّاعر العاشق.
فما الأساليب المعبّرة عن المعاناة؟ وما المعاني التي تجسّدها؟

الجوهر: خلافا لما درج عليه الشّعراء في تغزّلهم، لا تقوم غزليات جميل على وصف المرأة والتّغنّي بمحاسنها بقدر ما اتّخذها الشّاعر ترجمانا لمعاناته، وتصويرا لحاله النّفسيّة.
وقد توسّل في ذلك أساليب عديدة، من بينها الإنشاء كالاستفهام الذي يفيد الحيرة، ومنه قوله:
أفي النّاس أمثالي أحبّوا فحالهم
كحالي أم أحببت من بينهم وحدي؟
أو الحسرة، وهو ما عبّر عنه جميل في هذا البيت:
فأيّ فؤاد لا يذوب لما أرى؟ وأيّ عيون لا تجود فتدمع؟
والدّعاء والاستغاثة، يقول الشّاعر:
يا ربّ حبّبني إليها وأعطني المودّة منها أنت تعطي وتمنع

من الأساليب التي تحضر في قصائد جميل أيضا الجملة الاسميّة، وعادة ما يستعملها في الإخبار عن نفسه، فلكأنّما هو حديث الذّات عن ذاتها، أو أغنية الذّات المتألّمة المتوجّعة كما هي الحال في قوله: غريب مشوق مولع بادّكاركم.
والجملة الفعليّة، من خلالها يرحل الشّاعر إلى الماضي، وتحضره ذكرى رحيل الحبيبة ولحظة البين فيقول:
جزعت حذار البين يوم تحمّلوا ومن كان مثلي يا بثينة يجزع
يمتّعت منها يوم بانوا بنظرة وهل عاشق من نظرة يتمتّع؟
والجملة الشّرطيّة التي تصوّر عجز الشّاعر عن الهجر، كما عبّر عن ذلك في قوله: وإن رمت نفسي كيف آتي لهجرها؟ أو تصوّر لنا افتراق روحه عن جسده "جثمانه بأرض" غير أرض الحبيبة، و"فؤاده عندها."
كما أنّ الشّاعر قد اعتمد التّشبيه أسلوبا للتّصوير الشّعري، متّخذا بيئته وثقافته مرجعا، ليكشف لوعته وصبابته وتعطّشه للوصال، ذلك ما نستشفّه من الصّورة الشّعريّة التي نجدها في هذين البيتين:

www.devoir@t.net © 2011

وما صاديات حمن يوما وليلة على الماء يخشين العصيّ حوان
بأكثر منّي غلّة وصبابة إليك ولكنّ العدوّ عـــــــــــداني
دون أن تفوتنا الإشارة إلى المعاجم الحاضرة في شعر جميل كمعجم الحزن ومن الشّواهد على ذلك قوله :
"فكم غصّة في عبرة قد وجدتها فهيّجها منّي الدّموع الدّوارف
ومعجم الموت، ولا أدلّ عليه من قول الشّاعر:
لها في سواد القلب بالحبّ منعة هي الموت أو كادت على الموت تشرف
ما نلاحظه ـ إذن ـ هو تنوّع أساليب التّعبير، وهو علامة ثراء فنّيّ، ودليل على عمق تجربة الشّاعر. كما أنّ هذه الأساليب كانت أداة جميل في الإفصاح عن دواخل نفسه، عن معاناته، فإذا قصائده تبدو وكأنّها عالم وجداني يتألّف من جملة من المعاني التي تبدأ بالحب وتنتهي بالموت.
الحبّ في شعر جميل علاقة أزليّة أبديّة، نجد هذا في قوله:
تعلّق روحي روحها قبل خلقنا ومن بعد ما كنا نطافا وفي المهد

فزاد كما زدنا فأصبح ناميا وليس إذا متنا بمنتقض العهـــــــــد
هو قدر الشاعر، وميثاق وعهد من الله، لذلك نراه يجيب لائمه:
فقلت له: علي قضى الله ما ترى فيها وهل فيما قضى الله من رد
لقد لج ميثاق مـــــــن الله بيننا وليس لمن لم يوف لله من عهـد
غير أنّ قدر الشّاعر قد حتّم عليه الفراق، فكان المعنى الأساسيّ في شعره هو البين، الحدث الموجع الذي أذاب الفؤاد ألما مضنيا وأسال دمع العين فهمى، هو فاجعة الشّاعر وسبب لوعته وغاية الحزن ومنتهاه وأقساه، ذلك ما نصغي إليه في قوله:
كفى حزنا للمرء ما عاش أنّه ببين حبيب لا يزال يـــــــــــروّع
فوا حزنا لو ينفع الحزن أهله وواجزعا لو كان للنّفس مجـــــــــزع
فأيّ فـــــــؤاد لا يذوب لما أرى وأيّ عيون لا تجود فتدمـــــــــــــع؟
وبالرّغم مما يعانيه الشاعر من ألم وحزن وحرمان، فهو غير قادر على السّلوّ والنّسيان لأنّ الوفاء معدنه والإخلاص وحفظ العهد ديدنه يقول :
وإن رمت نفسي كيف آتي لهجرها ورمت صدودا ظلّت العين تدمع
فنراه لا يفتأ يذكر الحبيبة ويناجيها ويبثّها أشواقه وقد سكنته الحسرات واستغرقته العبرات كقوله:
إذا ذكرتك النّفس ظلت كأنني يقرّف جرحا في فؤادي قارف
وقوله :
غريب مشوق مولع بادّكاركم وكلّ غريب الدّار بالشّوق مولع
ولعلّ عاطفة الشّاعر تبلغ ذروتها حينما يطلب الموت ويرى في خلاصه ويمتدحه: يا حبّذا موتي إذا جاورت قبري.
صورة العاشق ـ إذن ـ كما تتجلّى من خلال هذه المعاني صورة مأسويّة، فهو ممزّق بين عاطفته واقعه، بين الموجود والمنشود.
خلاصة القول إنّ غزليات جميل بما فيها من أساليب وصور ومعان كانت بمثابة رجع الصّدى لمعاناة الشّاعر العاشق وترجمانا لها، مأتى ذلك هو حتما البيئة البدويّة التي نشأت

www.devoir@t.net © 2011

فيها هذه القصائد، فهي تنطق بما يميّز حياة البادية من قسوة التقاليد والنّظم الاجتماعيّة وكذلك ما يميّزها من إيمان بالقيم السّامية كالوفاء والصّدق. ولعلّ سبب خلودها في ذاكرة الشّعر العربيّ هو النّفس الوجدانيّ الحزين الذي تتّسم به وكذلك عمق التّجربة الوجدانيّة وتتجلّى أساسا في ذلك الحبّ المثاليّ الأفلاطوني الذي يتغنّى به الشّاعر وفيما تحفل به القصيدة من خفقان المشاعر. ذلك هو وجه الجمال في غزل جميل بن معمر.

الخاتمة:

شعر الغزل كما يتجلّى من خلال نموذج جميل بن معمر هو ـ إذن ـ ترجمة فنّيّة لتجربة حبّ مذاقها الحرمان والمعاناة، وذلك لأنّه بدويّ المنشإ والخصائص والمعاني، لذلك فإنّنا متى قارنّاه بنموذج عمر بن أبي ربيعة ألفينا بينهما وجوها للاختلاف عديدة، وذلك لأنّ غزل عمر نشأ في بيئة مغايرة تحقّق للشّاعر فيها اللقاء. فما خصائص تجربة عمر بن أبي ربيعة؟

www.devoir@t.net © 2011